دور لسانيات النص في تطوير مناهج تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها

المؤتمر الأول لتدريس اللغة العربية للناطقين بغيرها
أيار 2004، مركز اللغات بجامعة دمشق

تتلخص مساهمتي هذه في فكرة مفادها أن تطبيق نتائج الأبحاث في مجال لسانيات النص (أو تحليل الخطاب) من شأنه أن يسهم مساهمة فعالة في رفع قدرات دارسي اللغة العربية الأجانب في مجال فهم وتأليف النصوص في اللغة العربية الفصحى.

1. دراسة النص واتجاهاتها.

إن الاهتمام بدراسة النصوص المكتوبة والشفهية ينبع من إدراك حقيقة كون دراسة الجملة، باعتبارها أكثر الوحدات اللغوية تعقيدا، لا يكفي لفهم وشرح طريقة استخدام اللغة، أي الكلام. فالتواصل الكلامي بين الناس يجري في العادة عن طريق النصوص. إذ حتى لو تم الحدث الكلامي باستخدام جملة واحدة فإنها تعتبر في سياقها المقامي نصا. إن دراسة النصوص باعتبارها متتاليات من الجمل أُنتجت في سياق مقامي (context of situation) ملموس بهدف تواصلي معين، أدت إلى استخلاص عدد من المبادئ تقوم عليها عمليتا إنتاج واستيعاب النصوص والتي تتجسد في شكل قواعد أو قيود في بنى النص الفعلية والدلالية والإعلامية.

تتفرع دراسة التواصل الكلامي عن طريق النصوص تقليديا إلى مذهبين أساسيين : أحدهما يركّز على دراسة خصوصيات النص كمنتَج كلامي وقواعد بنيته؛ أما الآخر فيشدد على دراسة عمليتي إنتاج واستيعاب النصوص في سياقها المقامي. ويمكن القول أنه بعد أن نشأ المذهب الثاني من أجل التغلب على نقائص المذهب الأول، فان المذهبين اليوم يكمل أحدهما الآخر . وفيما يتعلق بمناهج تدريس اللغات لغير الناطقين بها فإنها تستفيد في تقديري فائدة مباشرة من نتائج دراسة بنية النصوص كمنتَج.

لقد توصل العلماء المهتمون بخصوصيات النص كوحدة لغوية وقواعد بنيتها إلى أن النص له عدة مستويات تتميز بشكل بنيوي، وهي مستوى البنية الفعلية (acting structure) ومستوى البنية الدلالية (semantic structure) ومستوى البنية الإعلامية (information structure) ومستوى الصياغة اللغوية. المستويات الثلاثة الأولى تتميز بالاستقلالية النسبية مع تعالقها وتفاعلها أما مستوى الصياغة اللغوية فإنه إلى جانب الاختيارات في مجال البنى

الثلاث، يعكس أيضا اختيارات مرتبطة بصفات المرسل والمتلقي ومقومات أخـرى للـسياق المقامي الفيزيائي والاجتماعي.

تنتج البنية الفعلية عن كون النص اللغوي نتيجة فعل من أنـواع الأفعـال التواصـلية (communicative act) للإنسان. ويخضع الفعل الكلامي (speech act) لبعض المبادئ العامـة للفعل التواصلي الإنساني كوجود هدف عند المرسل وظروف ملائمة لتحقيق هذا الهدف. ومن هنا فإن الهدف التواصلي هو من المؤشرات الأساسية لإضفاء طابع النصية على متتالية مـن الجمل. من جانب آخر فإن كل جملة بسيطة أو مركبة من شأنها أن تحقق فعلا كلاميا بهـدف معين. و بالتالي يمكن اعتبار النص المتكون من أكثر من جملة تحقيقا لفعل كلامـي مركـب حيث تسهم كل الأفعال البسيطة والعلاقات فيما بينها في تحقيق الفعل المركب.

أما البنية الدلالية فترتبط بكون النص يعكس جانبا من العالم الواقعي أو عالما تخيليـا ما. الطابع المركب للمستوى الدلالي يرجع إلى انقسام العالم الموصوف إلى عدد من المواضيع (states of affairs) تتألف من ذوات (entities) وصفات للذوات أو علاقات تربط فيما بينهـا وظروف يجري الحدث فيها. وتجد هذه الأمور صياغتها اللغوية عن طريق الجملة البـسيطة وعناصرها – الفعل والفاعل والمفعولات، ويسمى هذا الجانـب الـدلالي للجملـة "القـضية" (proposition). وتنشأ البنية الدلالية للنص عن طريق اختيار المواضيع التي يتم التعبير عنها، وربطها بصلة منطقية أو زمنية، وترتيبها الخطي (linear) والتدرجي (hierarchic). وكل ذلك يخضع لمهمة التعبير المناسب عن موضوع النص.

أما البنية الإعلامية للنص فإنها تستند إلى الطريقة الخاصة بالعقل البشري لاسـتيعاب المعلومات الجديدة، حيث أن هذه المعلومات تنبني على معلومات قديمة أو موجودة في العقـل البشري. وتجري إضافة الجديد إلى ما هو قديم في إطار الوحدة الإعلامية التي تضم في أغلب الأحيان قضية واحدة أو ربط قضيتين. أي أن الوحدة الإعلامية تتحقق أساسـا عـن طريـق الجملة البسيطة أو المركبة كشكل لغوي.

لقد تبين فيما تقدم أن الجملة، إن لم تكن الصيغة اللغويـة الوحيـدة، فهـي الـصيغة الاساسية للتعبير عن وحدات المستويات الفعلي والدلالي والإعلامي للـنص. هـذا يعنـي أن مقومات الجملة كصيغة، مثل الحالات الإعرابية وترتيب الكلمات (التقديم والتـأخير) ونبـرة الصوت والتنغيم واستخدام مختلف الأدوات (الحروف) والربط بين الجمل البـسيطة لتـشكل جملا مركبة، بالإضافة إلى اختيار العنصر اللغوي المعين لملء المواضع الوظائفية، كاختيـار اسم نكرة أو معرفة أو ضمير ...والخ، يعتمد على مكان ووظيفة الجملة في النص ولا يمكـن شرح اختيار هذا الشكل أو ذاك إلا باعتبار الجملة المعينة عنصرا من نص معين.

إن العلاقات بين وحدات المستويات البنيوية المختلفة تسهم في اعتبار عدد من الجمـل المتتالية نصا متكاملا يخدم عملية التعبير عن موضوع معين ولتحقيق هدف تواصلي معـين. تسمى صفة النص المترتبة على ترابط عناصر الصياغة اللغويـة تقليـديا باتـساق الـنص (cohesion) والصفة المترتبة على ترابط عناصر أو وحدات المـستويات الفعلـي والـدلالي والإعلامي بانسجام النص (coherence). من حيث المبدأ تقوم علاقات الاتساق على علاقـات الانسجام وتعكسها. بيد أنه لا تجد كل علاقات الانسجام تعبيرا على السطح اللغـوي للـنص، وهذا ما يعلل الحديث عن مظهرين منفصلين من مظاهر النصية. إن هذين المظهـرين همـا الذان يجب دراستهما في المقام الأول ووصف قواعدهما وإدخال نتائج الدراسة والوصف فـي مناهج تدريس اللغات الأجنبية من أجل التغلب على النظرة الانعزالية للجملـة ورفـع قـدرة الطالب على استخدام اللغة الناجح في عملية التواصل. ولابد من الأخـذ بعـين الاعتبـار أن دراسة علاقات الاتساق والانسجام لا يمكن إجراؤها إلا عن طريق وصـف مجموعـة مـن النصوص الواقعية يسمح حجمها باستخلاص القواعد. وتختلف هذه القواعد اختلافا جذريا عن القواعد في مجال النحو (syntax) بمعنى أنها قواعد افتراضـية (probabilistic rules) تقـوم على كثافة استخدام صيغة لغوية ما.

2. تأويل وظائف بعض التراكيب والادوات في اللغة العربية الفصحى مـن منظـور النص.

في هذا الجزء من االدراسة أود أن اعرض باختصار نتائج ثلاثة بحوث أجريتها على مجموعات من النصوص العربية الكتابية باللغة الفصحى ألفت في السنوات الثلاثين الأخيـرة من القرن الماضي. وتمثل هذه البحوث إعادة نظر في وظائف تراكيب وأدوات لغويـة مـن منظور النص. إن اهتمامي بالنصوص الكتابية يأتي من كون اللغة العربية الفـصحى، التـي تحتل المركز الأول في تدريس اللغة العربية في جامعة صوفيا، تستخدم للتواصل الكتابي فـي المقام الأول.

2. 1. البحث الأول يتناول ترتيب عناصر الجملة ووظائف هذه الوسـيلة الـشكلية تجاه مستويات الجملة النحوي والدلالي والإعلامي. الاستنتاج الأساسي في هذا البحث هـو أن ترتيب عناصر الجملة يعبر في المقام الأول عن تركيب الجملة الإعلامي، الذي يخضع بدوره للبنية الإعلامية للنص. وبسبب طول هذا البحث سأقتصر على ذلك الجانب من النتائج الـذي

يدل بوضوح كاف على كيفية اعتماد ترتيب عناصر الجملة على بناء النص، وهـو اختيـار العنصر الأول في الجملة الفعلية: أيكون الفعل أم الفاعل[1].

لقد ضم البحث 1731 جملة يتقدم فيها الفعل أو الفاعل بقية عناصر الجملة و تخضع للشروط التالية:

- هي جمل بسيطة أو جمل رئيسية (main clause) في إطار الجملة المركبة (complex sentence) ولا تتضمن عاملا يوجب تقديم الفاعل أم الفعل؛ مـثلا أن تبـدأ الجملـة بالحرف إن، أو أن تتأخر الجملة الرئيسية عن الجملة التابعـة (subordinate clause) في إطار الجملة المركبة.
- الفاعل في هذه الجمل ، وهو اسم أو ضمير منفصل، يؤدي الوظيفة الإعلامية "مخبرا عنه" (sentence topic) في بنية الجملة الإعلاميـة، ولـيس جـزءا مـن الإخبـار (information focus)، وهو ذلك الجزء من البنية الإعلامية الذي يكون هدف الإعلام. هذا الشرط ضروري لأن الفاعل عندما يكون وحده الإخبار و يتميـز هـذا الإخبـار بصفة التعارض، أي أنه يعارض معلومات مسبقة عند المتلقي، يتقدم على الفعل أيضا ويختلف عن الفاعل المخبر عنه بأنه يحمل أشد نبرة في الجملة – نبرة التعارض، كما هو الحال في الجملتين التاليتين:

(1) محمد يعرف البلغارية. (هو يعرف البلغارية.)

(2) **محمد** يعرف البلغارية.(**هو** يعرف البلغارية.)

فالجملة الأولى يمكن أن تعتبر جوابا عن السؤال: "ماذا عن محمد (مـاذا عنـه)؟" أو السؤال: "أي لغة يعرف محمد (أي لغة يعرف)؟" وفي الحالتين يعتبر "محمد" أو "هو" المخبر عنه. أما الجملة الثانية فتعتبر مناسبة في سياق ادعاء المتلقي أن شخصا غير "محمد" يعـرف الإنجليزية، فيصحح المرسل هذا الاعتقاد الخاطئ (في رأيه) ويتمثل الإخبار بذلك في عنصر واحد فقط هو الفاعل. وجدير بالذكر هنا أن هاتين الوظيفتين لتقديم الفاعل على الفعل قد أشار إليهما عالم اللغة والبلاغة النابغة عبد القاهر الجرجاني وسماهما بعده السكاكي فـي "مفتـاح العلوم" بـ"التحقيق" أو "تقوي الحكم" و"التخصيص".

إن تقديم الفاعل بسبب إخبار التعارض ليس له صلة ببناء النص ولذلك أدرجت فـي الجمل المدروسة الحالات التي يكون فاعلها مخبرا عنه فقط.

---

[1] في هذا البحث ألتزم بالرأي القائل إن اللفظ الدال على الفاعل كوظيفة دلالية (agent) عندما يتقدم على لفظ الفعل يحتفظ بالوظيفة النحوية فاعل (subject) ولا يتخذ وظيفة المبتدأ (subject of the nominal clause).

لقد استخرجت الجمل من مؤلفات أدبية وصحفية وعلمية، وهي تنقسم من حيث صنف النص إلى سردية (narrative) وعرضية (expository). في المرحلة الاولى من البحث تبـين أن ابتداء الجملة بالفعل أو الفاعل يخضع لعوامل تختلف ما بين النصوص التي يغلـب فيهـا سرد الأحداث المتتالية، وهي المؤلفات الأدبية، والنصوص التي يغلب فيها عرض المواضـيع القائمة على علاقات منطقية.

في النصوص السردية يمكن ملاحظة نسبة عالية جدا للحالات التي يتقدم الفعل فيهـا على الفاعل إذا كان الفعل ماضيا ويتقدم الفاعل على الفعل إذا كان الفعل مضارعا. والأرقـام التالية تشير إلى نسبة كل من هذه الحالات:

	فعل←فاعل	فاعل←فعل	المجموع
فعل ماض	584	108	692
فعل مضارع	36	152	188
المجموع	620	260	880

وحسب الإحصائيات الآنفة الذكر فان نسبة الجمل التي يتقدم فيها الفاعل على الفعـل، تمثل **80,25%** من مجموع الجمل المتضمنة فعلا مضارعا، أما نسبة الجمل التي يتقدم فيهـا الفعل على الفاعل فتمثل 84,46% من مجموع الجمل المتضمنة فعلا ماضيا. إن هذا التناسـب يمكن تفسيره بوظائف الفعل الماضي والفعل المضارع. فالأول يدل على حدث معين تم فـي الماضي وبذلك يمثل الصيغة الفعلية المخصصة لسرد الأحداث المتتالية، والثاني يـدل علـى حدث/حالة تستمر في فترة من الزمن أو حدث/حالة متكررة خلال فترة من الزمن وبذلك يمثل الصيغة الفعلية المناسبة لوصف ذوات أو وضعيات (situations) عن طريق الإسـناد إليهـا لأحداث/حالات تشترك فيها. يعتبر سرد الأحداث المتتالية في النصوص السردية أهم جزء من النص إذ هو يمثل هدف إنشاء ذلك النص. ولهذا يسمى سرد الأحداث بالمعلومـات الأماميـة (foreground information) أما الإخبار عن أحداث تتزامن مع الأحداث الأساسية ووصـف الشخصيات والوضعيات فيعتبران أقل أهمية ولهذا يسمان بالمعلومات الخلفيـة (background information). وإذا نظرنا إلى الجمل المتضمنة للنوعين من المعلومات رأينا أن الجملة التي تدل على حدث ماض معين وتبدأ بالفعل تجذب الاهتمام إلى الحدث الذي يشترك فيه المخبـر عنه، أما الجملة التي تدل على نشاط أو حالة خاصة بالمخبر عنه وتبـدأ بالفاعـل فتجـذب

الاهتمام إلى المخبر عنه، ويمكن تسمية الأولى بالجملة المشددة على الحدث (event-oriented) وتسمية الثانية بالجملة المشددة على المخبر عنه (topic-oriented).

من كل هذا نخلص إلى أن ترتيب الفعل والفاعل المخبر عنه في بداية الجملة متعلق بوجود مستويين من المعلومات في النص السردي – أمامي وخلفي، ونوعين من الجمل من حيث خصوصيتها الإعلامية – نوع يشدد على الحدث ونوع يشدد على المخبر عنه، حيث يكون تقديم الفعل على الفاعل مؤشرا إلى كون الجملة مشددة على الحدث وجزءا من المعلومات الأمامية بينما يكون تقديم الفاعل على الفعل مؤشرا إلى كون الجملة مشددة على المخبر عنه وجزءا من المعلومات الخلفية.

في إطار المعلومات الخلفية تلاحظ عوامل سياقية أكثر خصوصية تتطلب تقديم الفاعل على الفعل. وسأتناول هنا العوامل الثلاثة الرئيسية فقط:

العامل الأول يتمثل في إقامة علاقة مقارنة بين مخبرين عنهما على أساس الخبرين المسندين إليهما. في هذا السياق يتزامن الحدثان المدلول عليهما بالجملة وهذا ما يخرجه عن المعلومات الأمامية. وتتفرع المقارنة إلى ثلاثة أنواع من حيث العلاقة الدلالية بين الخبرين – التعارض (المثال 3)، التعداد (المثال 4)، والتشابه (المثال 5):

(3) **نحن** كنا ننطق الكلمات الانكليزية كأنها كلمات عربية، **أما مصطفى سعيد** فقد كان يعوج فمه ويمط شفتيه وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها. (الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص 56)

(4) ذهل حميد لهذا الطابور المصطف أمام مكتب التوزيع. ... **بعضهم** ما يزال يتثاءب **وبعضهم** تمدد على الرصيف معطيا ظهره للجدار. (محمد زفزاف، محاولة عيش، ص 24)

(5) ولا بد أنه أحبها من أول نظرة، **وهي** أيضا أحبته. (الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص 46)

العامل الثاني لتقديم الفاعل والذي يعارض عامل التوالي الزمني هو استخدام حرف العطف "فاء" للتعبير عن أن الجملة التي تليه تدل على سبب الحدث المدلول عليه في الجملة التي تسبقه (المثال 6). غني عن البيان أن ترتيب الجمل هذا يعارض الترتيب الزمني. ويمثل تقديم الفاعل على الفعل المؤشر الأساسي لوظيفة حرف العطف هذه، علما بأن للفاء وظيفة أخرى وهي التعبير عن أن الجملة التي تليها تدل على حدث يلي زمنيا وينتج منطقيا عن الحدث المدلول عليه في الجملة التي تسبقها. وفي هذا الاستعمال لحرف العطف يتقدم فعل الجملة الثانية فاعلها (المثال 7).

(6) مرة يقولون إن هناك علاقة مريبة تربطه بنعسة العرجى، **فهي** كثيرا ما تشاهد وهي تبحث بعينيها في الليل عنه. (يوسف إدريس، الشيخ شيخة، في مجموعة القصص "آخر الدنيا"، ص 26)
(7) ودخلنا على رجل ذي لحية يلبس جبة **فقام** وربت على رأسي وقال... (الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص 25)

والعامل الثالث لتقديم الفاعل المخبر عنه هو كون الجملة تصفه أو تعبر عن حقيقة عامة، حيث يدل الفعل المضارع على حالة مستمرة أو حدث متكرر عادي (المثالان 8 و 9).

(8) في الطريق أخذ حميد فكرة عن الرئيس. عليه أن يكون مؤدبا أمامه، أن يكون ساذجا. **الرئيس** لا يحب الأذكياء ذوي النظرات الحادة. (محمد زفزاف، محاولة عيش، ص 23)
(9) **الأبوة والسلطنة** لا يجتمعان. (إبراهيم الكوني، المجوس ج2، ص332)

هناك سياقات يجتمع فيها عامل التعداد وعامل الوصف, وهذا في حالة أوصاف قصيرة لشخصيات أو وضعيات مثلا:

(10) أما إن له ملامح بشرية فقد كانت له ملامح. كانت له عينان وأذنان وأنف ويمشي على ساقين، لكن المشكلة أن ملامحه تلك كانت تتخذ أوضاعا غير بشرية، **فرقبته** مثلا تميل على أحد كتفيه في وضع أفقي، وعيناه دائما عين منهما نصف مغلقة وعين مطبقة، **وذراعاه** تسقطان من كتفيه بطريقة تحس معها أنهما لا علاقة لهما ببقية جسده. (يوسف إدريس، الشيخ شيخة، في مجموعة القصص "آخر الدنيا"، ص 22)

تختلف النصوص العرضية (expository texts) عن النصوص السردية في المقام الأول بكونها لا تهدف إلى سرد أحداث متتالية، بل إلى عرض قضايا ترتبط بعلاقات منطقية، ولذلك لا يعتبر التعارض بين التوالي الزمني وعدم التوالي والتعارض بين الجمل المشددة على الحدث وتلك المشددة على المخبر عنه العاملين الأساسيين في تنظيم وبنية النص العرضي. من هنا فإن ترتيب الفعل والفاعل في النصوص العرضية لا يتعلق بهذين العاملين أساسا. ففي هذا الصنف من النصوص يوجد عدد كبير من الجمل التي تصف المخبر عنه ومع ذلك يتقدم فعلها فاعلها. لذا نلاحظ أن نسبة الجمل المتضمنة فعلا مضارعا يتقدم الفاعل في النصوص العرضية أكبر منها في النصوص السردية. في نفس الوقت تظل نسبة الجمل المتضمنة فعلا ماضيا يتقدم الفاعل عالية جدا:

الفعل←الفاعل	الفاعل ←الفعل	المجموع

فعل ماض	253	49	302
فعل مضارع	229	325	554
المجموع	482	374	856

إن النص العرضي لا يتطور عن طريق الانتقال من حدث إلى آخر وإنما عن طريق الانتقال من مخبر عنه إلى آخر. ويلاحظ هنا أن السياقات التي تتطلب تقديم الفاعل على الفعل مرتبطة أساسا بالانتقال إلى مخبر عنه جديد أو خبر جديد.

يعتبر سياق المقارنة في النصوص العرضية مهم بصفته وسيلة للتفريق بين مقـاطع من النص تختلف من حيث المخبر عنه الأساسي فيها.

هناك سياق آخر يتطلب تقديم الفاعل وهو تحويل عنصر كان جزءا من الخبر في الجملة السابقة إلى مخبر عنه في هذه الجملة:

(11) قضية المصطلح العلمي تختزل قضية أخرى هى قضية لغة التعليم الجامعي. **وقضية التعلـيم الجامعي** تثير قضية التقدم العلمي. **وقضية التقدم العلمي** تثير قضية اللغة المشتركة بـين العلميـين العرب. (شكري فيصل، قضايا اللغة العربية المعاصرة، في مجموعة البحوث "من قـضايا اللغـة العربية المعاصرة"، ص 33)

وثمة سياق يتقدم الفاعل فيه على الفعل ليدل على إسناد خبر جديد إلى نفس المخبـر عنه. في هذه الحالة يكون الفاعل عادة ضميرا منفصلا:

(12) ويعرض إخوان الصفا في رسائلهم نظرتهم للكون بالتفصيل. **وهـم** يتبعـون مـن الناحيـة الفيزيائية رأي أرسطو. (كريم مزيان، تعدد العوالم عبر التاريخ، في مجلة العربـي، العـدد 461، ص97)

كثيرا ما يمثل الفاعل المخبر عنه في السياقين الأخيرين عبارة تتضمن أو تتألف مـن ضمير إشارة. إذن فالحالات الكثيرة التي نلاحظ فيها في النـصوص العربيـة تقـديم فاعـل يتضمن أو يتألف من ضمير إشارة ترتبط ببنية النص:

(13) لا يستضيء العمل الأدبي من داخله...وإنما يتكشف في ضوئه أو ظلمته عندما تقاربه المفاهيم المجردة التي أنتجتها نظرية الأدب في تاريخها النظري. **وهذه المفاهيم** تقيم العمل الأدبي وتـستقيم في ممارستها لتقييمه. (فيصل دراج، في دلالة النقد، في مجلة الكرمل، العدد 2، ص106)

في عدد من الجمل التي يتقدم فيها الفاعل المخبر عنه على الفعل يمكن إرجـاع هـذا الترتيب إلى أن الجملة هي الأولى في مقطع يدور حول موضوع فرعي جديد. عـادة تكـون هذه الجمل في بداية فقرة.

في النصوص العرضية نلاحظ أن عدد الجمل التي تبدأ بالفاعل بعد حـرف العطـف "فاء" أكبر منه في النصوص السردية. وهذا يعود إلى أن "الفـاء" لا تعمـل فـي النـصوص العرضية للتعبير عن علاقة سببية بين دلالتي جملتين فحسب بل وللتعبير عن علاقة بين فعلين كلاميين مدلول عليهما بجملتين أو بمجموعتي جمل. فحرف العطف يربط بين زوجـين مـن الأفعال الكلامية؛ الزوج الأول يتألف من جملة تمثل ادعاء وجملة أو مجموعة جمل تعلل هذا الادعاء (المثال 14)، والزوج الثاني يتألف من جملة تمثل ادعاء أو إخبارا وجملة أو مجموعة جمل تكمل الإخبار بمعلومات إضافية (المثال 15). وإذ أن وظيفة الفاء هـذه تترتـب علـى وظيفتها للربط بين جملتين تدل الثانية منهما على سبب الأولى، فإن الجملة الدالة على التعليل أو الأكمال تبدأ بالفاعل:

(14) غير أن هذه المسلمات لا تستطيع أن تكون لها الغلبة. **فظروف الواقع** أحيانـا تتخطـى هـذه المسلمات وتغالبها فتغلبها. (شكري فيصل، قضايا اللغة العربية المعاصرة، في مجموعـة البحـوث "من قضايا الغة العربية المعاصرة"، ص49)

(15) ويلجأ العدوانيون إلى أساليب أخرى من السلوك غير المقبول اجتماعيا. **فهم** يسرقون ممتلكات المدرسة أو يتلفونها ويتشاجرون مع المعلمين والإداريين. وهم يشجعون الأطفـال الآخـرين علـى اكتساب موقف سلبي من المدرسة. (زياد الحكيم، الطفل العدواني، في مجلة العربي، العـدد 561، ص164)

يستنتج من كل ما تقدم أن تقديم الفاعل على الفعل في الجمل التي يعتبر فيها التقـديم جائزا يتعلق في المقام الأول بعوامل مرتبطة ببنية النص، سرديا كان أم عرضيا. فـي نفـس الوقت لا بد من الذكر أن الفاعل لا يتقدم في كل الحالات التي توجد فيها عوامل مناسبة لهـذا التقدم، بينما يتقدم الفعل في كل الحالات التي توجد فيها عوامل مناسبة. هـذا يـدل علـى أن الترتيب الذي يتقدم فيه الفعل هو الترتيب الأساسي للجملة الفعلية في اللغة العربية الفصحى.

2. 2. البحث الثاني الذي يفسر وظيفة عنصر لغوي من منظور النص يتناول وظائف حرف العطف "فاء". كما ذكرت في سياق عرض البحث الأول، تستخدم "الفاء" للتعبيـر عـن علاقات سببية بين الجانب الدلالي للجمل، أي القضايا التي تدل عليها، وللتعبير عن علاقـات

بين الجانب الفعلي للجمل، أي الأفعال الكلامية التي تدل عليها. هذا الاستنتاج تم التوصل إليه عن طريق دراسة مجموعة من النصوص.

عندما تربط الفاء بين القضايا المدلول عليها بالجمل فإنها تدل على علاقـة الـسببية. ومن المثير للاهتمام أن جانبي العلاقة - السبب والمسبب، يمكن ترتيبها بحيث يتقدم الـسبب المسبب أو يتقدم المسبب السبب. فكيف نفهم ما هو الترتيب في كل حالة معينـة؟ يمكننـا أن نعتمد على معارفنا حول العالم، لكن هذا يتطلب جهدا ذهنيا أكبر بالإضافة إلى أننا لن نتوصل إلى استنتاج حول الترتيب القائم إلا بعد أن نقرأ أو نسمع الجملة الثانية كاملة. لذلك ابتكـرت اللغة مؤشرات أخرى لها طابع شكلي، وهى في المقام الأول ترتيب الكلمـات مباشـرة بعـد حرف العطف. ففي حالة تقدم السبب على المسبب وهو الترتيب الذي يتطابق مـع التـوالي الزمني، يلي حرفَ العطف مباشرة الفعلُ. وفي حالة تقدم المسبب على السبب يلـي حـرفَ العطف عنصر اسمي للجملة كثيرا ما يكون هو الفاعل المخبر عنه، لكنه يمكن أن يكون أيضا ظرفا للزمان أو المكان. وهناك وسيلة أخرى دالة على تقدم المسبب على السبب هي الحرف "قد" الذي يدل، عندما يسبق فعلا ماضيا، على أن هذا فعل لا يلي زمنيا الفعل الماضـي فـي الجملة السابقة. هذه الوسيلة يعتمد استخدامها على نوع الفعل، أما تقدم الفاعل أو الظرف على الفعل فيستخدم في الجملة المتضمنة فعلا مضارعا والجملة المتضمنة فعلا ماضيا علـى حـد سواء. عن طريق الربط بين قضيتي جملتين يساهم حرف العطف "فاء" فـي البنيـة الدلاليـة للنص.

من الصفات الخاصة بالبنية الفعلية للنص وجود تدرجات من الأفعال أحدها رئيـسي والآخر (أو الأخرى) تابعة. بعض الأفعال التابعة تدعم نجاح الأفعال الرئيسية كما هي العلاقة بين التعليل كفعل تابع والادعاء كفعل رئيسي. والأفعال التابعة الأخرى تسهل فهم مـضمون الأفعال الرئيسية ويمكن تسميتها بـ "التتمة" وهي تتمثل في تخصيص مضمون الفعل الرئيسي أو التمثيل له أو تعميمه ...والخ. في اللغة العربية الفصحى يستخدم حرف العطف "فاء" للدلالة على الفعل التابع سواء أكان تعليلا أو تتمة. وهكذا تساهم "الفاء" في التعبير عن بنيـة الـنص الفعلية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الوظيفة لحرف العطف تتم الإشارة إليهـا شـكليا بـنفس الوسائل التي تستخدم للدلالة على تقدم المسبب على السبب.[1]

---

[1] راجع الأمثلة (6)، (14)، (15).

2. 3. البحث الثالث الذي أود عرض نتائجه باختصار يتناول الحـرف "إن". يـسند النحويون العرب إلى هذه الأداة وظيفة التأكيد. من حيث المبدأ يقبل المستعربون هذه الوظيفة لكنهم ينقسمون إلى فريقين من حيث الإجابة على السؤال: "ماذا تؤكد "إن" بالضبط؟" بعـضهم يرى أنها تؤكد صحة دلالة الجملة ككل. والبعض الآخر يذهب إلى أن وظيفة "إن" هي تأكيـد أو إبراز المخبر عنه مستندين في ذلك إلى الخصائص الشكلية للجملة التي تدخل عليهـا "إن" والتي تتمثل في اتخاذ المخبر عنه، فاعلا كان أو مبتدأ، الموضع الذي يلي الحرف مباشـرة. بيد أنه لا أحد من هاذين الرأيين قد تمت برهنته بتحليل عدد كاف من اسـتخدامات الحـرف الواقعية. ولهذا قررت أن أقوم بذلك حيث استخرجت من نصوص عربية معاصرة 350 جملة بسيطة أو رئيسية تبدأ ب"إن".

الملاحظة الأولى التي تثير الانتباه هي أن "إن" لا تستخدم في النصوص الـسردية إلا نادرا وذلك في أوصاف أو تأملات، أي فيما يسمى بالمعلومات الخلفية، بينما تستخدم بانتظـام في النصوص العرضية. فمن بين الجمل الـ 350 كانت 306 من نصوص عرضـية. علـى أساس هذه المادة اللغوية توصلت إلى استنتاج مفاده أن الحرف "إن" يؤكد صحة دلالة الجملة. وبما أن مثل هذا التأكيد يعتبر ضروريا عند فعل كلامي مثل الادعاء فإنه يمكن اعتبـار "إن" أداة تدعم نجاح فعل كلامي. ومن أهم البراهين على ذلك أن "إن" وإن كان يليها فـي أغلبيـة الحالات اسم معرفة هو المخبر عنه فإن هناك حالات أخرى أيضا يلي فيها الحـرفَ ضـمير شأن او مسند يتمثل في جار ومجرور أو اسم له وظيفة إخبار التعارض. بالإضـافة إلـى أن الحالات التي تلي فيها الحرفَ مخبر عنه لا يمكن التوصل إلى قاسم مشترك بينها يشرح لماذا أُستخدم الحرف في هذه الحالات بالضبط ولم يستخدم في حالات أخرى لإبراز المخبر عنه.

لا أود أن أطيل الكلام هنا عند هذه البراهين لأن دراستي لاستخدام "إن" فـي إطـار نصوص واقعية سمحت لي أن أستخلص وظائف أكثر خصوصية للحرف تنبني على وظيفتـه الأساسية وتتعلق ببنية النص الدلالية والفعلية. ومما يذكر هنا أن من وجه اهتمـامي إلـى أن الحرف له مثل هذه الوظائف هو عبد القاهر الجرجاني الذي يقول في "دلائل الإعجاز":

"تراها (أي إن) تزداد حسنا إذا كان الخبر بأمر يبعد مثله في الظن وبشيء قد جـرت عادة الناس بخلافه كقول أبي نؤاس "إن غنى نفسك في اليأس" (ص 227) وفي مكان آخـر: "واعلم أن الذي قلنا في "إن" من أنها تدخل على الجملة من شأنها إذا هي أسـقطت منهـا أن يحتاج فيها إلى الفاء لا يطرد في كل شيء وكل موضع... إنما يكون الذي ذكرنا في الجملـة من حديث اقتضاء الفاء إذا كان مصدرها مصدر الكلام يصحح به ما قبله ويحتج لـه ويبـين وجه الفائدة فيه." (ص 225)

وهكذا فإن دراسة استخدامات "إن" في سياقها النصي أدت بي إلى استخلاص الوظائف التالية:

أ – في 14 حالة تتقدم "إن" جملة أو مجموعة من الجمل تمثل جوابا على سؤال بلاغي:

(16) وهنا أقول: صبحان ا ! هل المهم مظهر الدولة أم استقرارها وسلامة الناس؟ **إنه** مظهر زائف، ذلك الذي ينشده البعض! (الشرق الأوسط رقم 8258، 2001/07/8، ص. 8)

ب- في 32 حالة تستخدم "إن" للدلالة على علاقة الإضراب إو الإبدال بين جملتين أو مجموعتين من الجمل بمعنى أن الجملة أو المجموعة الأولى تُنفى أو يشار إلى أنها لا تناسب الواقع وفي الجملة أو المجموعة الثانية يتم إثبات ما يعتبر صحيحا:

(17) غير أن العربية لا تستطيع أن تتقدم إلى ذلك وهي تحمل الأعباء الثقال. **إنه** لا بد لها أن تتخاص من بعض ما تعانيه وأن تقدم للناس صافية نقية. (شكري فيصل، قضايا اللغة العربية المعاصرة. بحث في الإطار العام للموضوع، في مجموعة البحوث "من قضايا اللغة العربية المعاصرة"، تونس 1990، ص 34)

عندما تربط علاقة الإبدال جملتين فقط يكون استخدام "إن" مرادفا لاستخدام حرفي العطف "بل" و "إنما"، ولكن عندما تربط العلاقة بين مجموعتين من الجمل تبقى "إن" الوسيلة الوحيدة للتعبير عن علاقة الإبدال:

(18) إن نزعتنا الشوفينية وكل نزعة تبالغ في تمجيد الذات هي بالضرورة ظاهرة لا تقدم كثيرا، بل هي بخيلة على شخصية مصر، وهي فوق ذلك وبالتأكيد ظاهرة غير مجدية. **إن** هذا العالم الذي يموج بالتطور والحراك، يتطلب منا، بل وينتظر، صياغة أخرى لدور حضاري وربما سياسي جديد، وهو دور يوجب علينا التوفيق الخلاق بين عروبة الأمة بطموحها المشروع والمستحق وبين انخراطها الواثق الواعي في حركة العولمة. (الأهرام 41582، 2001/07/8، ص. 33)

في (18) ينفي المؤلف في مجموعة الجمل الأولى النزعة الشوفينية المبالغ فيها ويؤكد في مجموعة الجمل الثانية التي تتقدمها "إن" على ضرورة إبدالها بالتوفيق الخلاق بين العروبة وحركة العولمة.

ج- في 28 حالة تستخدم "إن" بنفس الوظيفة التي يؤديها حرف العطف "فاء" للربط بين فعل كلامي أساسي وفعل كلامي تابع له، والتي توقفنا عندها فيما تقدم. في المثال (19)

تدل "إن" أن الجمل التي تليها تمثل تعليلا للادعاء في الجملة التي يسبقها، وفي المثـال (20) تدل على أن الجمل التي تليها تمثل إكمالا للخبر في الجملة التي تسبقها عن طريق تخصيص.

(19) ولكننا نعرف أن الدقة والتحديد في التشبيه ليس هما كل شيء. **إن** بيت ابن المعتز "أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر" يقوم على تشبيه دقيق محدد دون شك ، ولكنه لا يقـدم إلينا معرفة جديدة بالهلال أو بالحالات النفسية التي عانى منها الشاعر أثناء رؤيتـه لـه... (جـابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبالغي عند العرب ، بيروت 1992، ص 193)

(20) هنا نقول إنه أصبح من الضروري كشف أبعاد العلاقة بين السلطة والصحافة ورأس المـال ليس لكشف الخبايا ولكن لتوضيح المواقف.. وفي تقديري أن هناك خلافا جوهريا بين هذا الثالوث. **إن** السلطة تتحمل مسؤولية العمل التنفيذي ، والصحافة سـلطة رقابيـة تكتـسب شـرعيتها مـن مصداقيتها، ورأس المال أخطبوط له مصالحه وحساباته... (الأهـرام 41582، 2001/07/8، ص 33)

د- في 88 حالة تدل "إن" أن الجملة تبدأ موضوعا فرعيا جديدا في إطار الموضوع العام للنص. ومن العلامات المساعدة للاهتداء إلى بداية موضوع فرعي هي أن هذه الجمـل تكون في بداية فقرة. ربما ثمة من يعترض هنا ويقول إنه يمكن اعتبار وظيفة "إن" في هـذه الحالات هي إبراز الانتقال إلى مخبر عنه جديد. فاذا كان الأمر هكذا، إذن لماذا نجد أنه فـي عدد من الحالات لا يتم مثل هذا الانتقال بل يبقى المخبر عنه هو نفسه الذي كان فـي جمـل الفقرة السابقة؟

(21) أما الهجرة الخارجية فإنها تعني الانتقال إلى خارج القطر، ويكون هذا النوع من الهجرة إمـا طوعيا، ويتم عادة إلى الدول الغنية مثل الدول النفطية أو الدول الجديدة مثل أمريكا وكندا وأستراليا، حيث تتوافر فرص العمل برواتب عالية ، وهناك الهجرة القصرية وهي الناتجة عـن الاضـطهاد الديني أو التمييز العنصري أو الاحتلال العسكري أو نتيجة حملات الإبعاد السياسي.

إن الهجرة القصرية أصبحت من الموضوعات الرئيسية التي تجتـذب اهتمـام المـسؤولين الحكوميين والباحثين الأكاديميين... (محمد الحوراني، اقتصاد العمل، عمان 1987، ص. 44)

"إن" في بداية الفقرة الثانية ترمز إلى بداية موضوع فرعي جديد حول مخبـر عنـه أضيفت إليه معلومات في الفقرة السابقة.

هـ- في 46 حالة اُستخدمت "إن" في بداية جملة أو مجموعة جمل تمثل استنتاجا أو خلاصة في نهاية فقرة أو نص كامل.

و- وأخيرا هناك 96 حالة يمكن فيها الإسناد إلى "إن" وظيفة التأكيـد علـى أهميـة الجملة في سياقها الضيق، أي في إطار موضوع فرعي. على أن هذه الوظيفة يجب اعتبارها أوسع من وظيفة التأكيد على صحة دلالة الجملة ودعم نجاح الادعاء كفعل كلامي. لأنه فـي عدد من الجمل التي تبدأ بـ"إن" نجد عناصر تدل على الاحتمال والافتراض مثل "قد" و"لعل"، ومثل هذه العناصر تعارض جزم المرسل الذي لا بد أن يكون موجـودا فـي الادعـاء فـي الأصل:

(22) في اللحظة التي تعز فيها سياط الجلاد في الهواء هاوية فوق ظهر الضحية ينهدم شـيء مـا داخل الاثنين. **إن** ما انهدم **قد** لا يكون مرئيا للنظرة الأولى, ولكنه سوف ينتصر مع الزمن مثل ورم سرطاني شمل القلب كله. (فاضل العزاوي، الروح الحية، دمشق 1997، ص. 24)

والخلاصة هي أن الحرف "إن" إذا استخدم في بداية جملة بسيطة أو رئيـسية يـؤدي وظيفة أساسية تتمثل في التأكيد على صحة دلالة الجملة ودعم الفعل الكلامي. وعلـى أسـاس هذه الوظيفة تطورت وظائف فرعية يؤديها الحرف في النصوص العرضية بشكل خاص. في الحالات **أ، ب، ج، ود** تستخدم "إن" للربط بين وحدات بنيوية للنص، وفي الحالة **هـ** تـستخدم للدلالة على أهمية الجملة في إطار وحدة بنيوية. لا بد من الإشارة أيضا إلى أن وظـائف "إن" هذه لا تتطلب استخدامها دائما في السياقات المناسبة. لذلك فإن استخدام "إن" يعتمد على اختيار مؤلف النص.

3. آمل أن أكون قد تمكنت في الجزء الثاني من البحث من تقديم دلائل مقنعـة بـأن دراسة عناصر لغوية في سياقها النصي الضيق والواسع على أساس ما توصلت إليه لـسانيات النص من مبادئ متعلقة ببناء النص ووسائل تحقيق انسجامه واتساقه تتـيح امكانيـة لإعـادة النظر في وظائف هذه العناصر اللغوية ولفهم اكثر تعمقا لظروف استخدامها في النص بصفته الوحدة التواصلية الأساسية. إذا أدرجنا نتائج البحوث القائمة على مبادئ ومفـاهيم لـسانيات النص في المناهج الدراسية للغة العربية كلغة أجنبية فإننا سنتوصل إلى نتيجة مهمة جدا وهي الرفع من قدرة الدارس الأجنبي للغة العربية على الفهم الصحيح للنصوص العربية الأصـلية وإنشاء نصوص تقترب منها. إن هذا من شأنه أن يؤدي إلى تحسين فهمـه للثقافـة العربيـة وتحسين مستوى التواصل بينه كأجنبي يدرس العربية والعربي.

أما فيما يتعلق بكيفية إدراج تطبيقات لسانيات النص على اللغة العربية فـي المنـاهج الدراسية فهذا يمكن أن يحدث في مجال الاستيعاب التطبيقي والاستيعاب النظري للغة على حد

سواء. وفي هذا الصدد أود أن أعرفكم باختصار بتجربتي في قسم الدراسات العربية والسامية في جامعة صوفيا.

في إطار البرنامج الدراسي في قسمنا فإن التقديم النظري لمبادئ بناء النص وتجسيدها في النصوص العربية يأتي في نهاية المرحلة المتوسطة لاستيعاب اللغة ويعد الطلاب للمرحلة المتقدمة، ففي الصف الثالث تُدرس مادة نظرية بعنوان "لسانيات النص واللغة العربية المعاصرة". وتتضمن المادة المواضيع التالية:

1. البنية الدلالية للنص؛ انسجام النص.
2. الصياغة اللغوية للنص؛ اتساق النص؛ العلاقات الاتساقية:
2. 1. البنية الإعلامية للجملة وتعالقها بمضمون وموضوع النص.
2. 2. استخدام الضمائر والأنواع الأخرى من صيغ الإحالة النصية (text reference)؛ مبادئ بناء السلاسل المتألفة من تسميات نفس المشارك في عالم النص (co-referential chains).
2. 3. حروف العطف وأدوات أخرى تعبر عن الربط بين دلالات جمل النص.
3. البنية الفعلية للنص؛ أفعال كلامية بسيطة ومركبة؛ أدوات تدل على بنية الأفعال المركبة.
4. تصنيف النصوص:
4. 1. التصنيف عل أساس طرق عرض المضمون: السرد، الوصف، العرض، والمحاجة.
4. 2. التصنيف على أساس النشاط الاجتماعي: نصوص علمية، نصوص المراسلات الإدارية، نصوص صحفية، نصوص أدبية.

أما الاستيعاب التطبيقي للمعلومات التي يحصل عليها الطالب في المادة النظرية فيتم أثناء تدريس اللغة التطبيقي في الصفين الثالث والرابع، وخاصة في الحصص الموجهة إلى تطوير القدرة على إنشاء النصوص الكتابية، حيث تُجرى تمارين توجه اهتمام الطالب إلى النقاط التالية:

- ترتيب الكلمات في الجملة وتعلقه بتدرج المعلومات في النص؛ ومن هذه التمارين إدخال تغييرات في ترتيب الكلمات في بعض جمل نص عربي أصلي ومطالبة الطلاب برد الترتيب إلى صورته الأصلية وشرحه.
- استخدام أدوات العطف على المستوى الدلالي والفعلي؛ وفي إطار بعض هذه التمارين تعرض على الطلبة نصوص أسقطت منها كل أدوات العطف ويطالبون بملء الفراغات بأدوات عطف مناسبة وشرح اختيارهم.

- استخدام الصيغ المناسبة (أسماء وضمائر) لتسمية مشارك في عالم النص في الجمـل المتتالية لنص قصير أو مقطع من نص طويل؛ ومن هذه التمارين تقديم نص سـردي استبدلت فيه كل تسميات المشارك المعين باسمه الشخصي ومطالبة الطلاب باختيـار الصيغة المناسبة في كل جملة يظهر فيها هذا المشارك وفقا لمبـادئ بنـاء سلاسـل التسميات.
- خصائص بناء أصناف نصية كالسرد والعرض والوصـف والمحاجـة، ومـن هـذه التمارين تحليل بناء نصوص عربية أصلية مع التشديد على الأدوات الخاصة باللغـة العربية للدلالة على وحدات البناء على المستويات البنيوية المختلفة.
- بعض الصفات اللغوية الخاصة بأصناف من النصوص مثل النص الصحفي بأنواعـه، نص المرسلات الإدارية، النص القانوني، النص الأدبي ...والخ ، ومن هذه التمـارين تحليل نصوص عربية أصلية بالتشديد على الصفات المذكورة.

لهذه التمارين وظيفة تحضيرية تمهد للتمرين الأكثر تعقيدا وهو إنشاء نصوص تسرد فيها أحداث اشترك فيها الطالب بنفسه، وعرض آراء الطالب حول مسائل معينـة بالأسـلوب الصحفي، أو تأليف أخبار صحفية قصيرة، وكتابة رسائل شخصية ورسمية.

وختاما أود أن أشير إلى مشكلة تواجه المدرس والباحث الأجنبي في اللغة العربية إذا أراد أن يطور منهج تدريس اللغة العربية في اتجاه مبادئ بناء النص فـي الثقافـة العربيـة. وتتمثل هذه المشكلة في أن الدراسات القائمة على المبادئ النظرية للسانيات النص والمتناولـة مجموعات واسعة من النصوص الحديثة محدودة خارج العالم العربي وتنعدم تقريبـا داخـل العالم العربي. لكن هذه الحقيقة لا يجب أن تدفعنا إلى اليأس وإنما علينا أن نعتبرهـا تحـديا ودافعا للعمل في هذا الاتجاه.

د. تسفيتوميرا باشوفا-سالم
مركز اللغات والثقافات الشرقية
جامعة صوفيا

مراجع:

- Pashova, Tsvetomira (2001a) "Slovored na saobshtitelnoto izrechenie v savremenniya knijoven arabski ezik – funktsionalen analiz" (Word Order of the Declarative Sentence in MWA: a Functional Analysis), unpublished PhD thesis.
- Pashova, Tsvetomira (2001b) "Slovored i organizatsiya na informatsiyata v teksta – slutchayat sas sayuza *fa*" (Word order and organization of the information in the text – the case of the conjunction *fa*), In: Arabistica i islyamoznanie, Studii po sluchay 60-godishninata na Prof. Dr. Yordan Peev (Arabic and Islamic Studies, On the occasion of the 60th anniversary of Prof. Dr. Yordan Peev), Sofia: St. Kliment Ohridski University Press, pp. 252-257.
- Pashova, Tsvetomira (2003a) "The functions of 'inna in Arabic expository discourse" In: Arabistica i islyamoznanie II, Studii po sluchay 60-godishninata na Dozent Dr. Penka Samsareva (Arabic and Islamic Studies, On the occasion of the 60th anniversary of Assoc. Prof. Dr. Penka Samsareva), Sofia: St. Kliment Ohridski University Press, pp. 126-142.
- Pashova, Tsvetomira (2003b) "The VS/SV alternation in Modern Written Arabic from a textual perspective". In: Zeitschrift fuer Arabische Linguistik 42 (2003), Wiesbaden: Harrassowitz, pp. 7-40.